﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ [النّور: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ حالِ الكافرينَ، بعدَ بيانِ حالِ المؤمنينَ وطاعتِهم ومآلِهم

لمّا كانَ الكفّارُ مِنَ الكثرةِ والقوَّةِ بمكانٍ كانَ الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ؛ جوابًا لسؤالِ مَنْ كأنَّهُ قالَ: وهل ذلكَ مُمكِنٌ؟ فقيلَ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

ومن المناسبة: لمّا بيَّنَ الحقُّ جلَّ وتباركَ حالَ مَنْ أطاعَهُ ﷺ، وأُشيرَ إلى فوْزِهِ بالرَّحمةِ المُطلَقةِ المُستتبِعةِ لسعادةِ الدّارينِ؛ عقَّبَ ذلكَ ببيانِ حالِ مَنْ عصاهُ ﷺ، ومآلِ أمرِهِ في الدُّنيا والآخرةِ، بعدَ بيانِ تناهيهِ في الفِسْقِ؛ تكميلًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾: (حسب) أصولٌ أربعة، أحدها: العَدُّ، تقول: حسَبْتُ الشَّيءَ أحسِبُهُ حَسْبًا وحُسبانًا، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرَّحمن: 5]، ومن قياس الباب الحُسبانُ الظَّنُّ، وذلك أنَّه فُرِّقَ بينَه وبين العَدِّ بتغيير الحركة والتَّصريف، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّه إذا قال: حَسَبتُه كذا، فكأنَّه قال: هو في الذي أعدُّه منَ الأمور الكائنة[3]، وحسِبْتُهُ صالحًا أحسَبهُ بالفتح، مَحْسَبَةً ومَحْسِبَةً وحِسْبانًا بالكسر، أي: ظَنَنته[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، وقولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 308، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 398.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 398.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهريّ، الصّحاح: (حسب).

ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: 4]، كلُّ ذلكَ مصدرُهُ الحُسْبانُ[1]، والمشهورُ أنَّ (حَسِبَ) يرادفُ (ظنَّ)[2].

2) ﴿مُعْجِزِينَ﴾: عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ، وبهِ شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غيرِهِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، والعَجْزُ أصلُهُ التَّأخُّرُ عنِ الشَّيءِ، وحصولُهُ عندَ عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤَخَّرِهِ، وصارَ في العُرْفِ اسمًا للقُصورِ عن فعلِ الشَّيءِ، وهو ضِدُّ القُدرةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [المائدة: 31]، ويقالُ: أعجَزْتُ فلانًا، وعجَّزْتُهُ، وعاجَزْتُهُ، أي: جعلتُهُ عاجزًا، قالَ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 2]، والعَجوزُ سُمِّيَتْ بذلكَ؛ لعَجْزِها في كثيرٍ مِنَ الأمورِ[3].

3) ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾: (أوي) أصلانِ، أحدُهما: التَّجمُّعُ، والثّاني: الإشفاقُ، فمِنَ الثّاني يقالُ: أَوَيْتُ لفلانٍ آوي لهُ مَأْوِيَةً، وهو أنْ يَرِقَّ لهُ، ويرحمَهُ، ومِنَ الأوَّلِ يقالُ: أَوَى الرَّجلُ إلى منزلِهِ أُوِيًّا، وآوَى غيرَهُ إيواءً، يقالُ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[4]، والمَأْوَى في نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: 197] اسمٌ للمكانِ الَّذي يُؤْوَى إليهِ[5]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ.

4) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: (صير) أصل واحدٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصيرورةً، ويقالُ: أنا على صَيْرِ أمرٍ، أي: إشرافٍ مِنْ قضائِهِ[6]، ويقالُ: صارَ إلى كذا؛ إذا انتهَى إليهِ، قالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الشّورى: 15][7]، وصار إلى فلان مصيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [آل عمران: 28] وهو شاذٌّ، والقياسُ مَصارٌ مثلُ معاشٍ، و(صَيّرَهُ) كذا (تصييرًا) جعله[8]، والمعنى المُراد بالآية: المآلُ والمَرجع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجز).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(5) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(7) الرّاغب، المفردات: (صير).
(8) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (صير).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يُعْجِزُ الكفّارُ الجبّارَ، ومأواهم في الآخِرَةِ النّارُ

يقولُ اللّهُ تعالى شأنُهُ: لا تَظُنَّنَّ - يا مُحمَّدُ، أو أيُّها المُخاطَبُ - الَّذينَ كَفَروا، وكذَّبوا قادرينَ على الإفلاتِ مِنَ اللّهِ تعالى، بل هو قادرٌ عليهِم، وسيُعذِّبُهم على ذلكَ أشدَّ العذابِ، ومأواهم في الدّارِ الآخِرةِ النّارُ، ولَبِئْسَ المآلُ هي، ولَبِئْسَ القرارُ والمِهادُ هي[1]، وخلاصةُ المعنى: لا تحسبنَّهم معجزينَ اللّهَ تعالى عن إدراكِهِم بالإهلاك، في قُطْرٍ من أقطار الأرض، وإن هربوا كلَّ مهربٍ[2]؛ لأنَّه لا مَلْجَأَ ولا منجًى مِنَ اللّه إلّا إليه، فهو الَّذي إليه المنتهى، وإليه المصير.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

تأكيدُ معنى التَّمكينِ مِنَ السّياق المُفصح المُبين

قيلَ: لمّا كانَ الكفّارُ مِنَ الكثرةِ والقوَّةِ بمكانٍ؛ كانَ الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكين؛ جوابًا لسؤالِ مَنْ كأنَّهُ قالَ: وهل ذلكَ مُمكِنٌ؟ فقيلَ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ[3]، وعلى ذلكَ يكونُ فصلُ الجملةِ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذا استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ.

وقيلَ: بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيتينِ السّابقتينِ، أنَّهُ يكونُ للمؤمنينَ الصّالحينَ الاستخلافُ في الأرضِ بوعدِ اللّهِ المُؤكَّدِ، وفي هذهِ الآيةِ يُبيِّنُ مآلَ المُشركينَ الَّذينَ يحاربونَ اللّهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ، فالفصلُ بينَ الجملتينِ لكمالِ الاتِّصالِ بينَ موضوعِ الآيتينِ، فالآيتانِ السّابقتانِ فيهما بيانٌ ما للمؤمنينَ مِنْ منزلةٍ، وما تَحَلَّوا بهِ مِنْ طاعةٍ للرَّسولِ، والآيةُ الأخيرةُ فيها بيانُ المخالفةِ والمعاندةِ، والآيةُ الأولى تُبيِّنُ غايةَ الجهادِ، والثّانيةُ تُبيِّنُ حالَ الَّذينَ يجاهدُهم المؤمنونَ[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 81.
(2) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 120.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 308، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 398.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5223.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتحقيقِ مُقتضَى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، فقد كانَ المشركونَ يومَئذٍ في قوَّةٍ وكثرةٍ، وكانَ المسلمونَ يخافونَ بأسَهم، فرُبَّما كانَ الوعدُ بالأمنِ مِنْ بأسِهم، مُتلقًّى بالتَّعجُّبِ والاستبطاءِ الشَّبيهِ بالتَّردُّدِ، فجاءَتْ هذهِ الآيةُ تطمينًا وتسليةً[1].

غرضُ النَّهيِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

التَّنبيهُ على تحقيقِ الخبرِ، مُبينٌ عنِ المرادِ

المقصودُ مِنَ النَّهيِ عنِ الحُسبانِ، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ التَّنبيهُ على تحقيقِ الخبرِ[2]، فكونُ الكافرينَ غيرَ مُعجزينَ في الأرضِ، أمرٌ مُحقَّقٌ ثابتٌ لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ، ولا ينبغي أنْ يُخطِرَهُ المُخاطَبُ في بالِهِ.

نُكتةُ توكيدِ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

تحقيقُ مضمونِ الكلامِ مُعينٌ على الإبانةِ والإفهامِ

أُكِّدَ السِّياقُ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لِما يُفيدُهُ التَّوكيدُ مِنْ تحقيقِ مضمونِ الكلامِ، وهو عدمُ حُسبانِ الَّذينَ كَفَروا مُعجزينَ في الأرضِ، وفي هذا ملاءمةٌ لمقامِ تقويةِ عزائمِ المؤمنينَ الموعودينَ بالاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ، ومقامِ إزالةِ الخوفِ والرَّهبةِ مِنْ قلوبِهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

الدَّلالةُ على الدَّوامِ والاستمرارِ تُلَخِّص ما في العبارةِ مِنَ الاعتبارِ

عُبِّرَ بالمضارعِ الدّاخلِ عليهِ حرفُ النَّهيِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لِما يُفيدُهُ المضارعُ مِنَ الدَّوامِ والاستمرارِ المُناسبَينِ لمقامِ التَّثبيتِ، وتقويةِ العزائمِ، والمعنى: دُم على عدمِ الحُسبانِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 443.

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالغَيبةِ والخطابِ، يستوعب المعنى ويُجَلّيه

قرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ بياءِ الغَيبةِ، والباقونَ بتاءِ الخطابِ، وفتحَ السّينَ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ وأبو جعفرٍ، وكسرَها غيرُهم[1]، أمّا قراءةُ الجمهورِ؛ فهي على الخطابِ[2]، ومَحَلُّ الموصولِ النَّصبُ على أنَّهُ مفعولٌ أوَّلٌ للحُسبانِ، وقولُهُ: ﴿مُعۡجِزِينَ﴾ مفعولٌ ثانٍ[3]، وأمّا قراءةُ ابنِ عامرٍ وحمزةَ: فالفاعلُ فيها مُضمَرٌ يعودُ على ما دلَّ السّياقُ عليهِ، أي: لا يحسبَنَّ حاسبٌ أو أحدُ الَّذينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأرضِ[4].

تعيينُ المُخاطَبِ في جملة ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

المُخاطَبُ عامٌّ لكلِّ أحدٍ، أو خاصٌّ بالنَّبيِّ الأمجد

اختُلِفَ في تعيينِ المُخاطَبِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على قراءةِ الخطابِ، فقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، أي: ولا تحسبَنَّ - يا محمَّدُ - الَّذينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأرضِ[5]، والغرضُ مِنْ توجيهِ الخطابِ للنَّبيِّ ﷺ التَّهييجُ، أو تحقيقُ الأمرِ، وأنَّهُ بحيثُ لا يشكُّ فيهِ ناظرٌ[6]؛ لأنَّهُ على قَدْرِ عظَمةِ المُخاطَبِ يكونُ إنجازُ الوعدِ[7]، وقيلَ: الخطابُ لكلِّ مَنْ يقفُ عليهِ كائنًا مَنْ كانَ[8].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشارةُ إلى علَّةِ خُذلانِ الكافرينَ، مستفادٌ منَ السّياقِ المُبين

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يُشيرُ إلى السَّببِ في نصرِ المؤمنينَ وخُذلانِ الكافرينَ[9]، وهذا خطابٌ للرَّسولِ ﷺ، ينهاه فيه ربُّه تعالى

(1) القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 225.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 443.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 308.
(8) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(9) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5224.

أن يظنَّ قصدًا أو عَرَضًا، أنَّ الَّذين كفروا مهما كانت قوَّتهم مكينة، وسطوتهم أكيدة، سيفوتون اللّٰهَ تعالى، ويهربون ممّا أراد بهم من خِزي وعذاب، بل سيُخْزيهمُ اللّٰهُ القدير، ويُذِلُّهم، ويَؤولُ بهم إلى سوء المصير[1]، كأنَّهُ قيلَ: لا تحسبَنَّ الَّذينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأرضِ؛ لأنَّهم كافرونَ، واللّٰهُ قد حَكَمَ بنصرِ أهلِ الإيمانِ، وخُذلانِ أهلِ الكفرِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

تَـحـقُّـقُ كـفرِ الكفرةِ المحكومِ عليهِم بالخذلانِ وثبوتُه

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّٰهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، على أنَّ كُفْرَ الكَفرةِ المحكومِ عليهِم بالخُذلانِ، أمرٌ قد وقعَ، وتحقَّقَ، وثبتَ، ولا يحتاجُ إلى إقامةِ برهانٍ عليهِ، وقد صارَ كالصِّفاتِ الرّاسخةِ فيهِم.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾:

استعارةُ الإعجازِ لـلإفـلاتِ مِـنَ الـطَّـلـبِ، من بليغِ المَجاز

في قولِ اللّٰهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ حقيقةَ المُعْجِزِ، هو الَّذي يجعلُ طالبَ شيءٍ عاجزًا عن إدراكِهِ، ويُستعمَلُ مجازًا في معنى الإفلاتِ مِنْ تناولِ طالبِه[2]، فالمعنى هنا: لا تحسبَنَّ الَّذينَ كَفَروا مُفلتينَ مِنْ وعيدي، أو خارجينَ عن قُدرتي.

دلالةُ ﴿فِى﴾ في شِبه الجملة: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الـدَّلالـةُ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، مُبينةٌ عـنِ المُرادِ مِنَ السّياقِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، على أنَّ الأرضَ هي مَحَلُّ كونِ الَّذينَ كَفَروا غيرَ مُعجزينَ، قال الشَّنقيطيُّ: "والمعنى: لا يحسبنَّ الَّذين كفروا أحدًا يُعْجِز اللّٰهَ في الأرض، حتّى يطمعوا هم في مثل ذلك، وهذا معنًى قويٌّ جيِّدٌ، وأن يكون فيه ضميرُ

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 586.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 89.

الرَّسولِ لتقدُّم ذِكْره في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وأن يكون الأصلُ: (لا يحسبنَّهم الَّذين كفروا معجزين)، ثمَّ حُذِفَ الضَّميرُ الَّذي هو المفعول الأوَّل، وكأنَّ الَّذي سوَّغ ذلك أنَّ الفاعلَ والمفعولين، لمّا كانت لشيء واحد؛ اقتنع بذِكْر اثنين عن ذِكْر الثّالث"[1].

المرادُ بـ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في شبه الجملة: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

المُرادُ بالأرض في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرضُ الدُّنيا، أي: هم غيرُ غالبينَ في الدُّنيا، كما حَسِبوا أنَّهُ ليسَ ثمَّةَ عالَمٌ آخرُ[2]، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾، كما أسلفنا، لكن ليست لإفادةِ كونهم غيرَ معجزين فيها لا في غيرها، فإنَّ ذلك واضحٌ لا يحتاجُ إلى بيانٍ، بل لإفادة شمولِ عدم إعجازِهم بجميعِ أجزائِها، بما مفاده: ألّا تحسبنَّهم مُعجزين اللّهَ ﷻ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قُطر من أقطارِ الأرضِ، وإنْ هربوا منها كلَّ مهربٍ[3].

المرادُ أرضُ الدُّنيا قاطبة؛ إذْ لا مَفرَّ من عقاب الله وقَدَره

فائدةُ التَّقييدِ بشِبه الجملة: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لكنْ لا لإفادةِ كونِ الإعجازِ المنفيِّ فيها لا في غيرِها، فإنَّ ذلكَ ممّا لا يحتاجُ إلى البيانِ، بل لإفادةِ شُمولِ عدمِ الإعجازِ لجميعِ أجزائِها، أي: لا تحسبنَّهم مُعجزينَ اللّهَ ﷻ عن إدراكِهم وإهلاكِهم، في قُطْرٍ مِنْ أقطارِ الأرضِ؛ وإنْ هَرَبوا منها كلَّ مَهْرَبٍ[4]، وقيلَ: التَّعبيرُ بقولِهِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لبيانِ حالِهم في الدّارين، أي: هم في الدُّنيا مَقدورٌ على إهلاكِهم، وفي الآخرةِ مأواهم النّارُ[5].

إفادةُ شُمولِ عدمِ الإعجازِ لجميعِ أجزاءِ الأرضِ

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 556.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 389.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397.

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾:

بيانُ أثرِ العطفِ في تنوُّعِ المعنى وتكاملِه

الواوُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ للعطفِ، وفي المعطوفِ عليهِ ثلاثةُ أوجهٍ، **أحدُها**: أنَّ الجملةَ عطفٌ على جملةِ النَّهيِ قبلَها، مِنْ غيرِ تأويلٍ ولا إضمارٍ، وذلكَ على مذهبِ سيبويهِ، وهو تجويزُ عطفِ بعضِ الجُمَلِ على بعضٍ، وإنِ اختلفَتْ أنواعُها خبرًا وإنشاءً، **الثّاني**: أنَّها معطوفةٌ عليها بتأويلِ جملةِ النَّهيِ بجملةٍ خبريَّةٍ، والتَّقديرُ: (الَّذينَ كَفَروا لا يَفوتونَ اللّهَ، ومأواهم النّارُ)، **الثّالثُ**: أنَّها معطوفةٌ على جملةٍ مُقدَّرةٍ، والتَّقديرُ: (لا تحسبَنَّ الَّذينَ كَفَروا مُعجزينَ في الأرضِ، بل هم مقهورونَ، ومأواهم النّارُ)[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ عنِ النّارِ بأنَّها مَأْوًى:

التَّعبيرُ بأسلوبِ التَّهكُّمِ، ملمحٌ لـلإخـافـة من سوء العذاب

في إيرادِ النّارِ – في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾، بعُنوانِ كونِها مأوًى ومصيرًا لهُم، إثْرَ نَفْيِ فوْتِهم بالهربِ في الأرضِ كلَّ مَهْرَبٍ – جزالةٌ لا تخْفَى[2]، وكأنَّ السّامعَ يرى صورتَهم، وهم يحاولونَ الهربَ في أقطارِ الأرضِ، ثمَّ لا يَجدونَ لهُم مأوًى إلّا النّارَ المُعَدَّةَ لعذابِهم، وكذلكَ المأوَى هو المكانُ الَّذي يُؤْوَى إليهِ، فالتَّعبيرُ عنِ النّارِ بأنَّها مأوًى فيه تهكُّمٌ بهِم[3].

دلالةُ إعرابِ جملةِ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الاعـــــتراضُ التَّذييليُّ ذو أثرٍ في بيانِ السّياقِ

قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قبلَهُ، وهو كونُ النّارِ مَأْوًى للكافرينَ[4]، قال الآلوسيُّ: "وفي إيراد النّار بعنوان كونِها مأوًى ومصيرًا لهم، إثرَ نفي فوتِهم بالهرب في الأرض كلَّ مَهْرَب منَ الجزالة ما لا غايةَ وراءَه، فلله تعالى دَرُّ شأن التَّنزيل"[5].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5224.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.

معنى اللّامِ في عبارة: ﴿وَلَبِئۡسَ﴾:

جـوابُ جملةِ القَسَمِ المُقدَّرة، ذو أثرٍ في الدَّلالة مُؤثِّرة

قولُهُ جلَّ وتبارك: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جوابٌ لقَسَمٍ مُقدَّرٍ، أي: وباللهِ لَبِئْسَ المصيرُ هي، أي: النّارُ، فاللّامُ في قولِهِ: ﴿وَلَبِئۡسَ﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَمِ، والغرضُ منها زيادةُ التَّوكيدِ، والمَخصوص بالذَّمِّ محذوفٌ، أي: وباللهِ لَبِئْسَ المَصيرُ هي، أي: النّار، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿وَلَبِئۡسَ﴾:

المبالغةُ في ذَمِّ النّارِ، من دقيق اللَّفظ المُختار

(بئسَ) لفظٌ يدلُّ على الذَّمِّ، وفي قولِ الحَقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مبالغةٌ في ذَمِّ مصير الكافرين النّارِ، فهي تُذَمُّ؛ لأنَّها عذابٌ، ولأنَّ الكفّارَ خالدونَ فيها، وقد أكَّدَ ﷻ الذَّمَّ باللّامِ الواقعةِ في جوابِ القَسَمِ المَحذوفِ[2].

بلاغةُ الإيجازِ في جملة: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الإيجـازُ بحذفِ المـخـصـوصِ بالذَّمِّ، وأثرُه في المعنى

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ المخصوصَ بالذَّمِّ محذوفٌ، والتَّقديرُ: وباللهِ لَبِئْسَ المَصيرُ هي، أي: النّارُ[3]، وهم ليسوا مُعاجزين اللّهَ المُقتدرَ على وجوه الانتقام، عن أخذهم وإهلاكهم، سيَّما في الأَرْضِ الَّتي هي مملكة الحَقِّ، ومحلُّ تصرفاتِه سبحانه، بل قد أخذهمُ اللّهُ الرَّقيبُ عليهم بظلمهم وبغيهم، واستأصلهم عن وجه الأرض في النَّشأة الأولى، ومَأْواهُمُ النّارُ في الأُخرى، واللهِ لَبِئْسَ المَصيرُ مصيرُهم، وهو أسوأُ مرجع، وشَرُّ منقلبٍ، وأقبحُ مثوًى ومآب[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظَّنُّ والحُسْبانُ:

الظَّنُّ فيهِ تغليبٌ لأحدِ النَّقيضينِ عـلى الآخـرِ، والـحُـسْـبـانُ لا تغليبَ فيهِ

الحُسبانُ: أنْ يُحْكَمَ لأحدِ النَّقيضين، مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخرَ ببالِهِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5224.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.
(4) علوان، الفواتح الإلَهيَّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 16.

والظَّنُّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضينِ ببالِهِ، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[1]، والظَّنُّ ضربٌ من الاعتقاد، وقد يكون الظَّنُّ حسبانًا، لكن ليس باعتقاد.

وقيل: "أصل الحُسْبانِ منَ الحِساب، تقول: أحسِبُهُ بالظَّنِّ قد مات، كما تقول: أَعدُّهُ قد مات، ثمَّ كثر حتّى سُمّي الظَّنُّ حُسْبانًا على جهة التَّوسُّع، وصار كالحقيقة، بعد كثرة الاستعمال، وفُرِّق بينَ الفعل منهما، فيُقال في الظَّنِّ: حَسِب، وفي الحساب حَسَب"[2]، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرّحمن: 5]، أي: يجريان في منازلهما بحساب، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: 96]، قال الأخفش: أي: بحُسبان، قال: وهو جمعُ حسابٍ، مثل: شهاب وشُهبان، قال ابنُ السِّكّيت: حُسْبان مصدر حَسَبتُ الشَّيء، أَحْسُبُه حَسْبًا وحُسْبانًا[3]، وغالبًا ما تُفَسَّرُ آياتُ الحُسْبان بالظَّنِّ في القرآن، ممّا يؤكِّد أنَّ هناك صلةً بينَ المعنيين في العموم.

المَثْوَى والمأْوَى:

المَثْوَى: مكانُ الإقامةِ المُنبئةِ عنِ المُكْثِ، والمَأْوَى: المكانُ الَّذي يأوي إليهِ الإنسانُ دونَ إنباءٍ عنِ المُكْثِ[4]، ويقول أهلُ اللُّغة: إنَّ المأوى هو المَلجأُ الَّذي يُلْجَأ إليه، ومن ذلك ما ورد في القرآن على لسان ابن نوح في قوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43]، مع التَّنويه بأنَّ لفظ (المأوى) وارد في موضعِ الجنَّة، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النَّجم: 15]، وموضع النّار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩﴾ [النّازعات: 39]، علمًا بأنَّ المَأوى والمثوى كلمتان، تدلّان على مكان اللُّجوء، ومكان الإقامة، ولا علاقة لأيٍّ منهما في

المَثْوَى مكانُ الإقامةِ المُنبئةِ عنِ المُكْثِ

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 343.
(3) نشوان بن سعيد، شمس العلوم: (الحُسبان).
(4) حقّي، الفروق، ص: 148.

ذاتها بالجنَّة والنّار، ولكنَّ الاستعمال القرآنيَّ خصَّهما باستعمالٍ على سبيل الإضافة للجنَّة والجحيم، دونَ أن يمنع ذلك استعمالَهما في المعنى العامِّ في مواطن أُخرى غير النَّصِّ القرآنيِّ، بمعنى مكان اللُّجوء، دونَ تخصيص لهما.

المصيرُ والمَرْجِعُ:

المصيرُ يجبُ أنْ يخالفَ الحالةَ الأولى، وليس المَرْجِعُ كذلكَ

فُرِّقَ بينَ المصيرِ والمَرْجِعِ: بأنَّ المصيرَ يجبُ أنْ يخالفَ الحالةَ الأولى، ولا كذلكَ المَرْجِعُ، فإنَّهُ قد يوافقُ المبدأَ[1]، واعتُرِضَ: بأنَّهُ يُنافي هذا الفرقَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصّافات: 67 - 68]، معَ أنَّهم لم يَكونوا قبلَ ذلكَ في الجحيم، وأُجيبَ: بأنَّهُ قد رويَ أنَّ أهلَ النّارِ يورَدونَ الحميمَ لشُرْبه، وهو خارجٌ مِنَ الجحيم، ثمَّ يُرَدّونَ إلى الجحيم، بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرَّحمن: 44][2].

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/ 262، وحقّي، الفروق، ص: 149.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 492.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»